



د. إدريس نخش الجابري

رئيس تحرير مجلة «الدليل»

العلوم الإسلامية وتاريخ العلوم

إن البحث في تاريخ العلوم اليوم، يحصر مادته العلمية -غالباً- في العلوم الطبيعية والرياضية التي أنتجها الغرب. وإذا أدرج العلوم الإنسانية -كعلوم النفس والاجتماع واللغة والاقتصاد- في مجال اهتمامه أحياناً، فإن دراسته لها لا ترتقي في دقة الوصف وعمق التنظير وقوة إبداع المفاهيم عشر معشار ما يفعله الاستمولوجيون ومؤرخو العلوم الطبيعية والرياضية، بدعوى أن الشك مازال قائماً في ولادة العلوم الإنسانية، -ولادة حققة، فما زالت تتنازعها الهيمنة المنهجية للعلوم الطبيعية، والهيمنة الإيديولوجية للاتجاهات الفلسفية.

ذلك شأن العلوم الإنسانية التي أنتجها الغرب نفسه. وأما العلوم الإسلامية فإن تاريخ العلوم إذا أدرجها ضمن موضوعاته، فعلى استحياء! نعم، إن ثمة مراكز مهمة

قليل من الفلاسفة والاستمولوجيين، وغيرهم من المهتمين بتاريخ العلوم الطبيعية والإنسانية، من يمموا وجههم شطر العلوم التي أنتجها المسلمون، والتي قاربت الخمسمائة علم، حسب تصنيفات المصنفين، ولم يرغبوا بأنفسهم عن مكابدة كل صعب في سبيل تحقيق البعض اليسير من مئات الآلاف من نصوصها تحقيقاً علمياً رصيناً، دون أن يتجاوزوا ذلك -إلا نادراً جداً- إلى البحث في مفاهيمها ومناهجها ونظرياتها بحثاً وصفياً وتاريخياً ونقدياً، يبرز طبيعة العقل الذي أنتجها، وحدود الدور الحضاري الذي أسهمت فيه، في ظل حضارة ظلت حية بشموخ عشرة قرون، قبل أن تبدأ في الاعتلال والتراجع الحضاري، راسمة خطوط بصماتها على النهضة العلمية الحديثة، وتاركة أعماق آثارها في التواريخ والنفوس.

منذ نشأتها إلى اليوم؟ وإذا كان الدرس الاستمولوجي المعاصر يعلمنا أيضا أن صدق النظريات العلمية متعلق في جانب أساسي منه بالبناء الداخلي للنظرية، وهو بناء منطقي منهجي بالدرجة الأولى، أوليس يؤدي أي ضرر في المنهج إلى الشك في صلاحية النظريات التي تم إنتاجها في حقل تاريخ العلوم بالصورة التي نشأ عليها وتطور في سياقها؟

لكن أهل الاختصاص في العلوم الإسلامية اليوم، ليسوا أكثر علما بهذا التراث العلمي الإسلامي من غيرهم، ولا هم أقل ضررا عليه من غيرهم.

فالتوجه منهم إلى كليات الشريعة والدراسات الإسلامية في كليات الآداب لا يجرب أن ينظر إلى مفاهيم العلم الذي يدرسه ومناهجه ونظرياته نظرة مؤرخ العلم، الذي يربط بعمق بين المفاهيم والمناهج العلمية وبين طبيعة العقل الذي أنتجها، تاركا ذلك العمل إلى دعاة -نقد العقل العربي- أو -العقل الإسلامي- ممن لم يتمرسوا بمنتجات ذلك العقل، ولم يلامس حناجرهم غبار مخطوطاته المكددة بالملايين، قبل أن يقولوا فيه قولا !

فمن غير المتخصص في الفقه يستطيع أن ينجز درسا باستمولوجيا حقيقيا في الفقه؟ ومن غير المتخصص في الأصول يقدر على

للبحث العلمي في دول غربية، كفرنسا وألمانيا وغيرهما، فعلت ما لم يفعله باحثو البلاد الإسلامية في أوطانهم، من تحقيق لنصوص مهمة، ونشر لها، وتعريف بها، ودراسات لبعض الجوانب المهمة منها. ولكن التيار الذي غلب على تاريخ العلوم منذ بداياته الجينية في القرن الثامن عشر إلى لحظة نموه واستوائه في القرن العشرين، لم يكن يعير لتلك القرون العشر، وتلك الخمسمائة علم، إلا فقرات يسيرة باهتة ضمن تيار علمي يظهره جارف من منبعه اليوناني إلى مصبه الأوروبي. ولولا رجال منصفون من المستشرقين والمستعربين، أمثال سارتون وهوغنديخ وماتيفيسكايا، ورجال صابرون مثابرون من الباحثين، أمثال فؤاد سزكين وجورج صليبا وعبد الحميد صبره ورشدي راشد وأحمد جبار... لظلت تلك القرون العشر مجرد جزء من لحظة الفراغ الروماني، وظلت معارفها الموزعة على تلك الخمسمائة علم مجرد نقل باهت للعلوم اليونانية، والمعارف الهندية، والعقائد اليهودية والمسيحية.

وإذا كانت القاعدة الاستمولوجية تقول: إن المنهج العلمي يتأثر بطبيعة الموضوع الذي يدرسه، أفليس إغفال تلك المادة العلمية الهائلة التي خلفتها العلوم الخمسمائة في ألف سنة أو يزيدون، قد أضر كثيرا بالمناهج المستعملة في تاريخ العلوم

بل يكون -بتجديد العقل- المنتج للمعرفة العلمية، وهو جزء أساس من -تجديد الدين- إذ هو صقل لا إلغاء.

ثم قد يدرك أهل الاختصاص في العلوم الإسلامية اليوم، أن التكاملية أهم خاصية في ذلك العقل العلمي الإسلامي، وأن أهل الفقه والحديث والأصول كانوا أهل علم بالطب والفلك والحساب والهندسة والصيدلة وغيرها، وكانوا في هذه العلوم من المشاركين المنتجين لا من الدارسين المتعلمين فقط. ومع ذلك فإن المتوجه منهم إلى كليات الشريعة والدراسات الإسلامية في كليات الآداب اليوم، إنما يتوجه إليها في الغالب الأغلب فرارا من هذه العلوم الرياضية والطبيعية، مخالفا بذلك سنة أجداده ممن يدعي انتسابه إليهم، والبحث في آثارهم. أوليست هذه العلوم جزءا من آثارهم؟

ألا إن تاريخ العلوم فقير بغير المادة العلمية الإسلامية: فقير مفهوما ومنهجيا ونظريا.

كما أن التراث العلمي الإسلامي محتاج كله -بعقله ونقله- إلى الانفتاح على تاريخ العلوم، لتغنيه من فقره، ولتجدد ذاتها ورجالها.

ذلك بعض ما يرر تكوين مركز ابن البنا المراكشي للبحوث والدراسات في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، وذلك ما يريد أن يقدم -الدليل- إليه وعليه.

أن يقول قولاً إستمولوجيا عميقا في تاريخ المفاهيم الأصولية؟

ومن غير المتخصص في علوم الحديث يستطيع أن يؤسس لقول علمي رصين في تطور مفاهيم النقد الحديثي، وأبعادها المنهجية، وامتداداتها في العلوم الإسلامية الأخرى؟

ومع ذلك، ما زال أهل الاختصاص في العلوم الإسلامية اليوم، لا يدركون أن للعلوم الإسلامية تاريخا! وهم يخافون من شبح التاريخ، لأنهم واقعون تحت تأثير خصومهم الذين فهموا من التاريخ والتاريخية إلغاء لتراث المسلمين العريق. ولو تحرروا من هذا التأثير لعلموا أن صناعة التاريخ إبداع إسلامي أصيل. وأن طرفا لا بأس به من تلك العلوم الخمسمائة كان مداره على تاريخ الرجال والعلوم والفنون على اختلافها. ولو فعلوا لعلموا أن تاريخ العلوم عمل مركب بين -وضع التاريخ في العلم- و-وضع العلم في التاريخ-. وإنما المقصود هنا بهذا العمل: بيان الكيفية التي نشأ بها العلم، مستقلا بذاته في مفاهيمه ومناهجه ونظرياته، وكيف تطور واغتنى، وما هي العوائق النفسية والموضوعية التي وقفت في طريق استمراره في التطور الطبيعي. وكيف تفاعل مع العلوم الأخرى التي أنتجها نفس العقل الذي أنتجه؟ وما هي طبيعة هذا العقل نفسه؟ وذلك لأن استئناف الثورة العلمية في البلاد الإسلامية لا يتم من فراغ، ولا يكون بالنقل الآلي للعلوم الغربية،